مكانته فى الصناعة الشعرية

نشأ جميل نشأة أدبية صالحة لموطنه وعصره، وتخرج فى مدرسة الشعر كأحسن ما يتخرج الشاعر بالحجاز فى القرن الأول للهجرة، فكان كما جاء فى كتاب الأغانى «راوية هدبة بن خشرم، وكان هدبة شاعرًا وراوية للحطيئة، وكان الحطيئة شاعرًا راوية لزهير وابنه» فاجتمعت له الرواية والشعر مسلسلة من أساتذة فحول مشهود لهم بين الرواة والشعراء.

وكان بعض المشهورين بعلم الشعر فى زمنه يفضلونه على الشعراء كافة ويقولون أنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية.

فرُوى عن نُصيب الشاعر أنه قال: قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر فقيل لى: الوليد بن سعيد بن أبى سفيان الأسلمى، فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر. فإنّا لجلوس إذ طلع علينا رجل طويلُ بين المنكبين، طُوال، يقود راحلة عليها بزة حسنة. فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر: يا أبا جبير: هذا جميل؛ فادعه لعله أن ينشدنا. فصاح به عبد الرحمن:

هيــا جميلُ هيــا جميلُ! فالتفــت فقال: من هــذا؟ فقال: أنا عبد الرحمــن بن أزهر. فقال: قد علمت أنه لا يجترئ عليّ إلا مثلك. فأتاه فقال له: أنشدنا. فأنشدهم:

«نحــن منعنا يوم أوْل[1] نســاءنا» إلى آخــر الأبيات... ثم قال له: أنشــدنا هزجًا. فسأل: وما الهزج؟ لعله هذا القصير! قال: نعم. فأنشده:

رسم دار وقفت فــي طللـــــه كدت أقضي الحياة من جلله

حتى فرغ من القصيدة، ثم اقتاد راحلته موليًا.

«فقال ابن الأزهر: هذا أشعر أهل الإسلام. فقال ابن حسان: نعــم واللّه، وأشــعر أهل الجاهلية. والله مــا لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه. فقال عبد الرحمن بن الأزهر: صدقت!».

ثم قال نُصيب: «وأنشــدت الوليد فقال لي: أنت أشعر أهل جلدتك، واللّه ما زاد عليها».

ذلك رأى المتأدبين المشــهود لهم بعلم الشعر في عصره، ولعلهّم غلبّوا فيه النظر إلى العشــق والنســيب على النظر إلى فنون الشــعر كله، ففي هذا ولا ريب مجال لمن يشــاء أن يقدّم

(١) واد على طريق اليمامة إلى مكة.

جميلا على شـعراء الجاهلية وشعراء الإسـلام إلى زمانه. إذ ليس فى الجاهلية من اشـتهر بالعشـق والنسـيب خاصة كما اشـتهر بعض الشـعراء فى القرن الأول للهجـرة، وليس فى شعراء القرن الأول للهجرة من يرتفع على المقابلة بينه وبين جميل فى أغراضه ومعانيه. فإذا قال القائل على هذا الاعتبار: إن جميلا أشـعر أهل الإسـلام والجاهلية، فليس فى قوله غلو كبير، وإن جاز فيه الخلاف.

ومع تعدد الآراء فى هـذا يمكن الاتفاق على أن جميلا كان ملحوظ المكانة بين شـعراء زمانـه وكان معترفًا له بالإجادة والأستاذية إلى ما بعد زمانه، كما يظهر ذلك من نظر الشعراء المبرزين إلى معانيه واقتباسهم من أقواله.

لقـى الفرزدق كثيرًا بقارعة البـلاط – بالمدينة – فقال له الفرزدق: يا أبا صخر! أنت أنسب العرب حين تقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنمـا تمثّل لى ليلى بكل سبيـل

ويعرض له بسرقته من جميل حيث يقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنمـا تمثّل لى ليلى على كل مرقب

فأجابه كثير: وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفـــوا

وهذا البيت أيضًا مسروق من قول جميل:

نسير أمام الناس والناس خلفنـــــا
فإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفـــوا

وهذان شـــاعران بارزان من أبناء عصر جميل يعترفان فيما بينهمـــا بالاقتباس من معانى جميل، وهو اقتباس لا يخلو من شهادة وإكبار ودلالة على مكانة ملحوظة بين الشعراء.

وقد بقيت له هـــذه المكانة إلى ما بعد عصره عند أناس من شـــعراء العصر العباسى فى طبقة الفرزدق وكثير. فروى أن ابن الحسين المهلَّبى لقى أبا العتاهية فاستنشده من شعره فأنشده:

يا صاحب الروح ذى الأنفاس فى البدن
بين النهـــــار وبين الليـــــل مرتهـــن

لقلما يتخطاك اختلافهمـــــا حتى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبنى يد الدنيا بقوتهـــا إلى المنايا وإن نازعتها رسنى[1]

(١) الرسن: حبل فى رأس الدابة.

لله دنيا أناس دائبين لهـــا قد أرتعوا فى رياض الغَى والفتن
كسائمات[1] رواع تبتغى سمنا وحتفها لو درت فى ذلك السمن

قال ابن الحسين المهلّبى: فكتبتها ثم استنشدته من شعره فى الغزل فقال: يا ابن أخى! إن الغزل يسرع إلى مثلك، فقلت له: أرجو عصمة الله جل وعز، فأنشدنى:

كأنها مـــن حسنهـــا درة أخرجها اليمُّ إلى الساحـــل
كأنّ فى فيها وفى طرفهـــا سواحرًا أقبلن مـــن بابـــل
لم يبق منى حبها ما خـــلا حُشاشة فى بـــدن ناحـــل
يا من رأى قبلى قتيلا بكـــى من شدة الوجد على القاتـــل

فقلت له: يا أبا إسحاق! هذا قول صاحبنا جميل:

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فقال: هو ذاك يا ابن أخى، وتبسم!

وأقل ما يدل عليه هذا وأشـباهه أن شـعر جميل كان يقرأ ويستحســن ويقتدى به فى معناه، وأنه ينال هذا الاستحسان عند فحول الشـعراء فضلًا عن الشُّداة المبتدئين، وهذه مكانة «الأستاذية» لامراء.

(١) السائمة: الماشية والإبل الراعية.

وقد يزكى هذه المكانة أن الذين شهدوا بها كان بينهم أناس عرفوا بالخيلاء وشدة الاعتداد بالقدرة الشعرية بين النظراء، ومنهم من كان يستحمق لفرط خيلائه كالشاعر العاشق كثير، وهو أحرى الناس بمنافسة جميل.

فمن خيلائه أن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ونصيبًا اجتمعوا فى مكان فأرسلوا إليه راويته يدعونه إليهم، فأكبر الأمر وسأل صاحبه متبرمًا: أما كان عندك من المعرفة بى ما كان يردعك عن إتيانى بمثل هذا؟.. قل لابن أبى ربيعة إن كنت قرشيًا فإنى قرشى، وإن كنت شاعرًا فأنا أشعر منك... قال راويته: هذا إذا كان الحكم إليك. فقال: وإلى من هو؟ ومن أولى به منى؟.. ثم رجع الرسول إليهم فأخبرهم بما سمع منه، فضحكوا ثم نهضوا معه فدخلوا عليه فى خيمة، فوجدوه جالسًا على جلد كبش، فما أوسع لهم من مجلسه!

فهذا الشاعر على خيلائه كان لا ينى قائمًا قاعدًا بالشهادة لجميل وتفضيله عن نفسه حيث يسأل وحيث لا يسأل، وهو مزهو بالسماع منه والرواية عنه والتتلمذ عليه.

سأله نصيب: أجميل أنسب أم أنت؟ فقال: وهل وطّأ لنا النسيب إلا جميل!

وسـئل مرة أخرى فقال: وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه؟

وربمـا نقلوا عن كثير فى صدد إعجابه بجميل ما نسـتبعد صدقه سـواء قاله أو لم يقله. كزعمهم أنه ذكر يومًا أنه يروى لجميـل ثلاثين قصيـدة لا يعرفها الناس وأنـه أمات له ألف قافية لينتحلها ويدعيها لنفسـه. فإن ميدان جميل لا يتسـع لألف قافية تسـرق. ولا لثلاثين قصيدة تسـقط من جملة شعره وهـو محدود الأغراض متشـابه الأنماط. وإنمـا يفهم من هذا الـكلام إن صدر من كثُير أن فخره بالرواية عن جميل أكبر من فخره بشعره الذى يُنسب إليه، ولولا مكانة جميل عنده وعند الناس لما وقع فى خاطره وجرى على لسانه هذا الفخار.

* * *

ولا نحسـب أن أحدًا ناظر جميلا علـى قصد منه – أو على غيـر قصـد – كما ناظره عمـر بن أبى ربيعة الـذى كان كثير يستطيل عليه.

فقد كانـت المناظرة بينهمـا طرائق متعـددات لا طريقة واحـدة، فـكان كلاهما شـاعرًا وكلاهما مشـهورًا بالنسـيب

وكلاهمـا إمامًا لأمثاله من المتغزلين. فكان جميل فى عصره إمام العشـاق المقصورين على معشـوقة واحـدة، وكان عمر بن أبى ربيعة فى عصره إمام المشـغوفين بمغازلة النسـاء، وكانا فوق هذا التقابل فى شـتى الطرائق متقابلين فى تمثيل البداوة والحضارة، وفى عزة النسـب وعراقة الأصول. فهما متناظران يقترنان فى الميزان كلما عرض الناقد لشعراء ذلك الزمان، وقد تلاقيا وتناشدا وقيل إن جميلا سمع منه اللامية التى فيها:

جرى ناصح بالود بينى وبينهـا
فقربنى يوم الحصاب إلى قتلـى

فقـال: هيهات يـا أبا الخطـاب! لا أقـول والله مثل هذا سـجيس[1] الليالى، وما خاطب النسـاء مخاطبتك أحد، وقام مشمرًا.

ونميـل نحن إلـى قبول هـذه الرواية لأن الشـاعرين قد تشـابها فى معانٍ هى أقرب إلى نمط ابن أبى ربيعة منها إلى نمط جميل.

(١) طوال الليالى.

فقال جميل:

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وقال عمر:

إذا خدرت رجلى أبوح بذكرها
ليذهب عن رجلى الخدور فيذهب

وقال أيضًا:

أهيم بها فى كل ممسى ومصبح
وأكثر دعواها إذا خدرت رجلى

وهو من القصيدة التى سمعها جميل وشهد من أجلها لعمر بالسبق فى مخاطبة النساء، والبيت أقرب إلى كلام الذين تعودوا محادثة النساء منه إلى كلام العاشق المقصور على معشوقة واحدة، كذلك قال جميل:

وهما قالتا لو أن جميلا
عرض اليوم نظرة فرآنا

بينما ذاك منهمـــا رأيانـــى
أعمل النص سيره الزفيانـــا[1]

وهو أشبه بقول عمر وبفعله أيضًا وخلائقه حيث يقول:

بينما يذكرننـــى أبصرننـــى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قلن تعرفن الفتى قلـن نعـــم قد عرفناه وهل يخفى القمـر

وقد قيل: إن عمر بن أبى ربيعة أنشـد بثينة تلك الأبيات الثلاثة مـن كلام جميل فقالت: «إنه اسـتملى منك فما أفلح، وقـد قيل: اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم من خلقه».

ومن قصائد جميل المشهورة رائية مطلعها:

أغادٍ أخى من آل سلمى فمبكـــر
أبِنْ لى أغـــادٍ أنت أم متهجِّـــر

وهو كمطلع عمر فى قصيدته الرائية التى هى أفضل شـعره حيث قال:

أمن آل نعم أنت غـــاد فمبكـــر
غداة غـد أم رائـــح فمهجِّـــر

(١) الزفن: الدفع الشديد والضرب بالقدم كما يفعل الراقص.

والقصيدة كلها مما قيل إن جميلا سمعه من شعر عمر، فأقر له وأثنى عليه.

وفـــى الديوانين قطعة جيمية رويـــت لعمر ورويت لجميل منها هذه الأبيات:

قالت وعيش أخى وحرمة والـــدى
لأنبهن الحـــى إن لـــم تخـــرج
فخرجت خيفة قولهـا فتبسمـــت
فعلمت أن يمينها لـــم تحـــرج
فلثمت فاهـا آخـــذًا بقرونهـــا
شرب النزيف ببرد ماء الحشـــرج

وهـــو كلام فيه مـــن عبث المجـــون والمماحكـــة بين عمر وصويحباتـــه، وليس فيه من جد العشـــق الذى كان بين جميل وبثينـــة، ولا هـــو ممـــا يوافق فخـــر جميل باقتحـــام المنازل والمناجـــزة لمن يترصدون له بالســـيوف حـــول بيت بثينة، ومنهـــم أبوها وأخوها كما جـــاء فى بعض الأخبار، وتكرر فى سيرته على روايات مختلفات.

فالذى نرجحه أن جميلا كان يحب أن يحكى عمر فى بعض مـــا قال، ولكننا لا نرجح هذا الترجيح لنخلص منه إلى تقديم

عمـــر على جميل فى الصناعة الشـــعرية، فهما فيها متكافئان يختلفـــان حينما اختلفا فـــى المزاج والخليقـــة ولا يدعو ذلك إلى تفضيـــل أحدهما على الآخر فى صناعـــة النظم والتعبير، وإنمـــا نحمل اقتباس جميل من عمـــر على اقتداء البدوى بأهل الحضارة حيثما كان وكانوا، ولا سيما إذا كان الحضرى شاعرًا مقبول الشعر بين العلية والمترفين من أبناء المدينة وبناتها، وهـــم أهل الطبقة التى تروع من البدو خاصة من كان قريبًا إلى معيشة المدن غير منقطع لخشونة البادية، على مثال جميل.

* * *

فهمـــا إذن فى الشـــعر نـــدان متكافئان، جميـــل وعمر بن أبى ربيعـــة. وقد خرجا معًا بالغزل كله من ناحيتيه فى القرن الأول للهجـــرة بأرض الحجاز بين حاضـــرة وبادية، فلو زال شعر الغزل فى تلك البيئة وفى ذلك العصرجميعًا فلم يبق منه إلا ما نظم هذان الشاعران لأغنانا عن كل ما عداه فى الدلالة على حالة المرأة وحالة النساء كما ينعتها العاشق وزير النساء.

وقد يبدو على شـــعر جميل إذا قوبل بشـــعر عمر أنه أفحل وأجزل وأبلغ فى الصناعة الشـــعرية وأجمل، وذلك فيما يبدو

لنـــا التباس بيـــن فحولة المزاج وفحولة الشـــعر لا يثبت على التمحيص. فمن المألوف أن يظهر الجد فى شعر العاشق الذى ينســـب بامرأة واحدة ويعيرها كل قلبه وهواه، ولا يظهر مثل هذا الجد فى شـــعر الرجل الذى يقضى زمانه كله فى التحدث إلى النساء والتنقل بينهن، وقلَّ أن يسلم رجل كهذا من اصطناع التأنـــث ولو لم يكن مطبوعًا عليه، فيســـرى التأنث إلى كلامه وتتوارى منه قوة الفحولة التى تقترن بالجد حيث كان.

ومع هذا لم يســـلم جميل ممن يأخذ عليه التأنث فى نصف بيت هو قوله:

ألا أيها النُّوام ويحكموا هبـــــوا
أسائلكم هل يقتل الرجل الحـب

فالشـــطر الأول كما قال صالح بن حسان «أعرابى فى شملة» والشطر الثانى «مخنث يتفكك من مخنثى العقيق!».

ولكـــن نصف بيت أو مئات من الأبيـــات ليس فيها أعرابى واحد فى شملة، ومعظم أبياتها هوادج تسفر عن حسان مدللات وأخدان حسان مدللات! وذلك ديوان ابن أبى ربيعة فى جملته على التحقيق.

ويشبه الالتباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر التباس آخر يعرض لكثير من المعجبين بنسيب جميل، فهو عندهم إمام الشعراء لأنه إمام المحبين، وقد سئل عنه نُصيب فقال: ذاك إمام المحبين، وهل هدى الله عز وجل لما ترى إلا بجميل؟

وجائزٌ أن يكون صدق الحب سببًا من أسباب جودة الشعر الذى يعبر عنه، ولكن صدق الحب وجودة التعبير يظلان بعد هذا شيئين مختلفين، فيصدق المحب ولا يجيد الشعر، ويجيد الشاعر ولا يبلغ مبلغ ذلك المحب الصادق فى وجده وشوقه ووفائه... إن أحدهما لسبب للآخر ونعنى الحب والتعبير، ولكنهما قد يفترقان كما يتفقان.

ولا يزال الحكم على عشق جميل وغزل جميل وشعر جميل يتطلب الحكم على ثلاثة أشياء لا على شىء واحد، وإن لم يكن من الضرورى أن تتناقض هذه الأشياء.

فالذين قالوا إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية لأنه أصدق المحبين يخطئون، إذ ربما ثبت له أنه أصدق من أحب فى زمانه ولم يثبت له أنه أصدق من تغزل فضلًا عمن هجا ومدح كما أراد بعض النقاد فى زمانه أن يقول.

وحقيقة الرأى الذى يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعرًا يجمع بين البلاغة والسهولة، ويرتقى فى الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره، وهم على الإجمال فطريون فى هذه الصناعة لهم مزايا الفطرة وعيوبها فى آن، ولا سيما العيوب التى لها اتصال بكل صناعة من الصناعات.

ومن مزايا الفطرة الصدق والبساطة وقرب الأداء، ومن عيوبها النقص والسذاجة وقلة الإتقان. ومن رأينا أن شعراء الجاهلية وشعراء القرن الأول للإسلام كانوا جميعًا أوفر الشعراء حظًا من مزايا الفطرة وعيوبها على السواء. فهم أصحاب معنى مستقيم ولغة قوية وشعور لا بهرج فيه ولا التواء، وهم إلى جانب هذا مبتدئون متعثرون فى صوغ الشعر لم يصلوا بالقصيدة ولا بالأغنية إلى مبلغ الإتقان ووحدة المدلول، ولعلهم لم يبلغوا فى ضرب من الشعر مبلغه من الإتقان غير الرجز، لأنه مفكك بطبيعته لا يحتاج إلى تنسيق وانسجام.

وما زال الإتقان الصناعى يزداد والشعور الفطرى ينقص حتى تناهيا زيادة ونقصًا فى أواخر عهد العباسيين، فأصبح الإفراط فى الصناعة بهرجًا، والإفراط فى ضعف الشعور الفطرى تكلفًا واصطناعًا، وتلاقى هذا وذاك فى الغثاثة المزيفة التى لا هى

صناعة جيدة ولا فطرة جيدة، ولكنها مسخ للصناعة والفطرة لا خير فيه.

فالشعراء العباسيون مثلا أجود صناعة من الشعراء الأمويين والمخضرمين، وأنأى منهم عن استقامة الفطرة وبساطة التعبير، ولا استثناء لأحد من الأمويين والمخضرمين والجاهليين فى ضعف الصنعة الذى يأخذ كل منهم بنصيب منه حتى شعراء المعلقات.

وشأن جميل فى هذا شأن غيره من أبناء عصره وسابقيه: يأتى بالكلام السهل البسيط لأن معناه سهل بسيط، ولأنه يملك القدرة الفنية التى يعمد بها إلى المعانى المركبة فتسلس له فإذا هى مجلوة فى ثوب من البساطة يخدع السامع حتى ليحسبه خلوًا من كل تركيب.

وقلما تجاوز الأبيات فى القصيدة الواحدة واعتمد الإطالة إلا تعثر والتفت بمن يتحدث عنه بين الخطاب والغياب وضمير المفرد وضمير الجمع فى نفس واحد، كما قال:

فإن تبين بلا جرم ولا ترة[1]
وتولعى بى ظلمًا أىّ إيلاع

(١) ثار.

فقد يرى الله أنى قد أحبكـــم
حبًا أقام جواه بين أضلاعـــى
لولا الذى أرتجى منه وآمله
لقد أشاع بموتى عندها ناعى

أو كما قال:

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبهـــا
ولابد من شكـــوى حبيب يـــــروَّع
ألا تتقيـــــن الله فيمـــــن قتلتـــــه
فأمسى إليكم خاشعًـــا يتضـــــرع

وقد يخطئ فى قواعد اللغة أو يتجوز فى أبيات غير قليلة، منها قوله فى قصيدة من أشهر قصائده:

فإن لم تكن «تقطع» قوى الـــود بيننـــا
ولم تنس ما أسلفت فى سالف الدهـــــر
فسوف يرى منها اشتيـــاق ولوعـــــة
يبين وغرب من مدامعهـــا يجـــــرى

ومنها قوله:

ولو أن «داع» منك يدعو جنازتى
وكنت على أيدى الرجال حييت

وهــو فى هــذا وعمر بن أبــى ربيعة وغيرهما من شــعراء عصرهما سواء أو متقاربون.

* * *

وفى حيز هذه القدرة الفنيــة يبدع غاية الإبداع الذى يتاح لشــاعر قديم أو حديث، فلا يقول شــاعر فــى البيت والبيتين أو الأبيات القلائل أبلغ من قوله فى تعذر نسيان الحبيب:

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلى

أو قوله لمن يقدحن فى صاحبته ليحللن عنده فى محلها:

ولرب عارضة علينـا وصلهـــا
بالجد تخلطه بقـول الهـــازل
فأجبتها بالرفق بعـد تستـــر
حبى بثينة عن وصالك شاغلـــى
لو أن فى قلبى كقــدر قلامـــة
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلـــى

ويقلن إنك قد رضيت بباطـــــل
منها فهل لك فى اعتزال الباطل
ولباطلٌ ممن أُحـــب حديثـــــه
أشهى إلىَّ من البغيض البـــاذل

أو قولـــه فـــى حيرتـــه بين حبـــه لغيرها وحـــب غيره من المحبين:

سلا كل ذى ود علمت مكانـــــه
وأنت بها حتى الممات موكـــل
فما هكذا أحببت من كان قبلهـا
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعـل

أو قوله فى الفراق:

كأنى سُقيت السم يـــوم تحملـــوا
وجدَّ بهم حاد وحـــــان مسيـــــر
على أننى بالبرق من نحو أرضهـــا
إذا قصرت عنه العيـــون بصيـــــر
وإنى إذا ما الريح يومًا تنسَّمـــت
شآميةً عـــاد العظـــام فتـــــور

ألا يا غراب البين لونك شاحـــــب
وأنت بروعات الفـــراق جديـــر
فإن كان حقًّا ما تقول فأصبحـــــت
همومك شتى والجنـــاح كسيـــــر
ودرت بأعداء حبيبـــــك فيهُـــم
كما قد ترانـــى بالحبيـــب أدور

أو قولــه فى تمنـــى الصلة الدائمة بصاحبتــه حيًّا وميتًا ثم سخطه على لجاجة الحب بعد هذا:

أعوذ بك اللهم أن تشحـط النـــوى
ببثينة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاور إذا ما مت بينـــى وبينهـــا
فيا حبذا موتى إذا جاورت قبـــرى
عدمتك من حب! أما منك راحـــة
وما بك عنى من تـــوان ولا فتـــر؟

ولهذه الأبيات الأخيرة لا نستغرب مبالغته التى تندر فى شعره وشعر أبناء عصره حيث يقول:

إذا ما دنت زدت اشتياقًا وإن نـــأت
جزعت لنأى الدار منهـا وللبعـــد

أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد
سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
تعلق روحى روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا
وليس إذا متنا بمنتقض العهد
ولكنه باق على كل حالة
وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

ففى هذه المبالغة مسحة من شطحات ابن الفارض وأضرابه، ولكن المبالغة هنا تتسلسل وتتدرج وتنمو على جذورها حتى تبلغ ذروتها ولا غرابة فيها ولا تناقض بين أعلاها وأدناها. فمن قال البيت الأول قال الأبيات التى تليه كما يصعد النفس مطيلًا فيه حتى يستوفيه.

إلا أن الذى يأباه الذوق والعقل أن تنسب إلى جميل أبيات كهذه الأبيات التى ضمت إلى ديوانه:

خليلى إن قالت بثينة ماله
أتانا بلا وعد؟ فقولا لها: لها

أتى وهو مشغول لعظم الذى بـــــه
ومن بات طول الليل يرعى السها، سها
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحـــى
إذا برزت لم تبق يومًا بهـا بهـــا
لها مقلة كحلاء نجـــلاء خلقـــة
كأن أباها الظبى أو أمهـــا مهـــا
دهتنى بود قاتل وهـــو متلفـــى
وكم قتلت بالود من ودهـــا دهـــا

فهذا كالانتقال من الشـملة العربية إلى ثياب المرافع قبل أن تخلـق المرافع بقرون، ولو جاز أن يقـول جميل مثل هذه الأبيات مرة لوجب أن تتكرر نظائرها فى قصائده هنا وهناك، لأن المحسنات من هذا الطراز عادة تجر لا محالة إلى الإدمان.

وقياسًـا على هذا كله ما جـاوز الصدق الفطـرى والبلاغة السـهلة والجـد فى وصف الشـعور، فهو منحـول له وليس بالنسج الذى يندس بين لحمته وسداه.

إنمـا الرجل ابن زمانه فى معناه وصناعته، وله من الإمامة بين شـعراء العشـق فى ذلك الزمان مكان لـم ينازع فيه، لأن

عيوبه أقل من عيوبهم ومزاياه أظهر من مزاياهم، وشـــعره فى جملته يجمع خير ما قالوه.

وهنا يحسن بنا أن نقيد «خير ما قالوه» بما قالوه فى النسيب دون غيـــره، فالحق أنه لم يأت بطائل فى الهجاء ولو بالقياس إلـــى معاصريه، أو لعل الذى نظم فى هذا الباب ورجح به على الشـــعراء فى رأى نقاد عصره قد ذهب به الزمن ولم يصل إلينا مع سائر شعره، وهو ظن ضعيف.